دولة الأدب فى حلب

سيف الدولة بن حمـــــدان

للدكتور محمد أسعد طلس

ما نعرف أن حلبا أو الشام كله قد أصاب عهداً أحفل بالعلماء والأدباء والشعراء والحكماء والأطباء من عهد سيف الدولة أبي الحسن علي بن عبد الله بن حمدان عظيم الدولة الحمدانية ؛ فقد كان بنو حمدان «ملوكاً أوجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة ؛ وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطة قلادتهم . وكان رضى الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه غرة الزمان وعماد الإسلام ومد به سداد الثغور وسداد الأمور ، وكانت وقائعه فى عصاة العرب تكف بأسها ، وتنزع لباسها ، وتقل أنيابها وتذل صعابها وتكفى الرعية سوء آدابها . وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ومحط الرحال ، وموسم الأدباء ، وحلبة الشعراء . ويقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ العصر ونجوم الدهر ، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها ، وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به[1] » وكان على عالماً وفقيها يناقش العلماء ويطرب لمحادثتهم ومناظراتهم كما كان شاعراً له الشعر الجيد والتشبيه الملكى ، ولم يبق لنا الدهر من شعره إلا نحو خمسين بيتاً ذكرها من ترجم له وأكثرها مذكور فى اليتيمة ، ومن أجود شعره قوله:

أقبـــله على جَزَع ... كشرب الطائر الفَزِع
رأى ماء فأطعَمه ... وخاف عواقبَ الطمعَ
وصادف فرصة فدنا ... ولم يلتذ بالجرعِ[2]

وهو كما ترى شعر لطيف يدل على خفة روح ورشاقة خاطر لما تضمنه من صور بديعة وجميلة. ومن أجل شعره أيضاً بل من أجل الشعر العربي فى موضوعه قوله فى وصف ساعة من ساعات اللذة زانها ساق صبيح وقوس قزح رائع :

وساق صبيح للصَّبوح دعوته ... فقام وفى أجفانه سِنة الغَمض
يطوف بكاسات العُقار كأنجم ... فمن بين مُنقضٍ عليها ومنقض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفاً ... على الجو دكناً والحواشى على الأرض[3]
يُطرزها قوسُ الغمام بأصفر ... على أحمر فى أخضر تحت مبيضّ
كأذيال خَوْد أقبلت فى غـــلائل ... مُعصَّفة والبعض أقصر من بعض[4]

هذا والله الشعر المرقص لما فيه من صور حية ومعان جميلة ، ولا سيما تلك الصورة الفنية الرائعة للقوس بألوانه الجذابة واستدارته الرائعة . وقد كنت أود أن أجمع هنا ما انتثر من شعر أبي الحسن فى بطون كتب الأدب ولكنى أرجئ هذا إلى أن أظفر بشىء أكثر مما جمعت

أما عناية أبي الحسن بالعلم فما كانت أقل من عنايته بالأدب ورجاله فقد كان مغرماً بنفائس الكتب وجياد الآثار العلمية . قال الحافظ الذهبي فى تاريخ الإسلام : «كان بجامع حلب خزانة كتب

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ١١ طبعة الصاوى
(٢) المصدر السابق ص ٢٤ — ٢٥
(٣) هذا البيت فى رواية الثعالبي هو ثانى أبيات المقطوعة ، وفى رواية ابن خلكان ثالثها وقد فضلنا الرواية الأخيرة لأنها أكثر ارتباطاً وتساوقا
(٤) أنظر اليتيمة ج ١ ص ٢٤ ووفيات الأعيان طبع الميمنية ج ١ ص ٣٦٥

على الطنطاوى

مصلحة الناس فى زمانهم ، واعتمدوا العرف المعروف فى أيامهم ، والقرآن لكل زمان ومكان . وليس القصد أن ندع المذاهب جملة ، ونأمر الناس جميعاً بالاجتهاد ، فهذا ما لا يقوله ذو مسكة من عقل ، ولكن القصد النظر فى أدلة الأحكام الفقهية ، فما كان دليله النص فلا مساغ للكلام فيه ، وما بنى على العرف يتغير بتغيره ، وهذا معنى القاعدة المعروفة : « لا ينكر تبدل الأحكام بتبدل الأزمان »

فأفهموا الناس أن القرآن لم ينزل ليكون تمائم ورق ، ولا ليتخذ منه غناء وطرب ، ولكنه (كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم .

كان فيها عشرة آلاف مجلدة من وقف سيف الدولة وغيره» . وكان معنياً أيضاً بجمع الأطالس والآلات الفلكية، فقد ذكر الأستاذ أحمد تيمور باشا أن فى دار الكتب المصرية نسخة مصورة من أطلس قيم ينتظم أشكال الكواكب وأطوالها وهى مما ألف للأمير العالم سيف الدولة بن حمدان[1] . وكان يستكثر من الحكماء والأطباء والفلاسفة ويقربهم من مجلسه ويشجعهم على التأليف والترجمة ونشر العلم . . . قالوا : وكان إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيباً ، وكان فيهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين ، ومنهم من يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم . وفى دائرة المعارف الإسلامية : « أن الفضل الذى ناله سيف الدولة بنشر العلم والأدب واللغة لهو مجد عظيم لا يقل عن مجده فى أعمال السياسة والحروب[2] »

وأما عطاياه التى كان يغدق على أهل العلم والأدب فحدث عنها ما شئت . وقالوا : إنه صنع دنانير خاصة للهبات والعطايا زنة كل دينار منها عشرة مثاقيل ، وكان على هذه الدنانير اسمه وصورته[3] وقد عقد الثعالبى فصلاً فى انفجار يناييع جوده على الشعراء . قال أبو الحسن الهمدانى : كنت واقفاً فى الدهاليز بين يدى سيف الدولة بحلب والشعراء ينشدونه ، فتقدم إليه أعرابى رث الهيئة فاستأذن الحجاب فى الإنشاد فأذنوا له فأنشد :

أنت علىٌّ وهـــذه حلب ... قد نفد الزاد وانتهى الطلبُ
بهذه تفخر البـــلاد وبالأ ... مير تزهى على الورى العربُ
وعبدُك الدهرُ قد أضرّ بنا ... إليك من جور عبدك الهرب

فقال سيف الدولة : أحسنت ، ولله أنت ، وأمر له بمائتى دينار[4] . ومن هذا الإسراف والعطاء بلا حساب ما رواه صاحب اليتيمة من أن أبا فراس كان يوماً بين يدى سيف الدولة فى نفر من ندمائه فقال لهم سيف الدولة : أيكم يجيز قولى وليس له إلا سيدى (يعنى أبا فراس)

لك جسمى نحُله ... فَدَعِى لِمْ تحِله
لك من قلبى المكا ... نُ فَلِمْ لاَ تحُله

فارتجل أبو فراس

أنا إن كنت مالكا ... قلبى الأمر كله

(١) مجلة الهلال سنة ٢٨ ج ٤
(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة سيف الدولة ج ٢ ص ٣٦٥
(٣) اليتيمة ج ١ ، ص ١٥
(٤) اليتيمة ج ١ ص ١٥ — ١٦ وابن خلكان ج ١ ص ٣٦٥

فاستحسنه سيف الدولة وأعطاه ضيعة بمنبج تغل ألفى دينار[1] وقصص يناييع جوده على الشعر أكثر من أن تحصر فقد كان يغدق على من يقصدونه المال الجسيم ويبعث إليهم بالثياب والماشية والوصفاء[2]

كان من نتيجة هذا العطاء الراجح واليد الطولى أن اجتمع لدى أمير حلب جمهرة من العلماء الفحول أمثال : ابن نباتة ، وابن خالويه، والفارابى ، وأبى على الفارسى ، وكشاجم، والخالديين أبى بكر وأبى عثمان ، والصنوبرى ، والمتنبى ، والوأواء ، والببغاء، والناشئ ، والنامى أبى الحسن السميساطى ، وأبى الطيب اللغوى، والسرى الرفاء ، وأحمد البازيار ، وأبى فراس ، وعلى بن عبد الملك القاضى ، وأبى سلامة القاضى ، والطبيب عيسى الرقى ... وغيرهم من رجال الأدب والعلم الذين سنقف عند كل منهم وقفة نبين فيها آثاره من علم وأدب إن شاء الله

لم تقف حركة سيف الدولة الأدبية والعلمية على الشام فحسب بل تعدته إلى العراق وفارس ، فهذا أبو الفرج الأصفهانى يأتيه من العراق ، فيستظل بظله الوارف ، ويفيد من عطاياه حين يقدم إليه أول نسخة من كتابه الفريد . وهذا أبو الفرج عبد الواحد الببغاء يأتيه من نصيبين فيصيب عنده مالاً وجاهاً[3]

وممن أفادوا من رعايته من شعراء بغداد ابن نباتة السعدى ، وله فى سيف الدولة شعر رائق جزاه عليه أفضل الجزاء[4] . ومن أدباء فارس أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى[5] . وكان يقول : « ما فتق قلبى ، وصقل ذهنى ، وأرهف حد لسانى ، وبلغ بى هذا المبلغ إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التى علقت بحفظى وامتزجت بأجزاء نفسى ، وغصن الشباب رطيب ورداء الحداثة قشيب[6] » ونحن إذا رحنا نتتبع الفضلاء الذين أموا حلب وأفادوا من سيدها وأميرها وعالمها فى القرن الرابع للهجرة ذكرنا العدد الجم مما لا مجال لسرد طرف منه فى مقال كهذا

ظلت بقايا هذه الحركة الحمدانية فى حلب بعد أن انقرضت دولة بنى حمدان ؛ فنحن نجد فى القرن الخامس للهجرة

(١) اليتيمة ج ١ ص ١٥
(٢) أنظر نبذاً من هذا فى اليتيمة من ص ١٤ إلى ص ١٨
(٣) اليتيمة ج ١ ص ٢٠٠
(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٥٧ فما بعدها
(٥) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٩٢ (٦) المصدر نفسه ج ١ ص ١٠